مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية بمكة المكرمة

مجلة
مجمع اللغة العربية
على الشبكة العالمية

السنة السابعة

العدد التاسع عشر، رجب ١٤٤٠هـ

مارس (آذار) ٢٠١٩م

مجلة علميّة، محكَّمة، تُعنى بنشر البحوث والدّراسات في اللّغةِ العربية، ونشرِ قرارات المجمع وآرائه وتنبيهاته ومقالاته وأخباره.

(تصدرُ مرةً كلَّ أربعة أشهر)

(١)

ظاهرة العدول وأثرها في صيغ الإفراد والتثنية والجمع عند الفراء في ضوء كتابه «معاني القرآن».

د. محمد مصطفى عبدالعال القطاوي

- أستاذ مشارك، في النحو والصرف، من فلسطين.
- دكتوراه في مناهج وطرق تدريس اللغة العربية، من كلية التربية، بجامعة عين شمس في القاهرة.
- رئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب في جامعة الأقصى بغزة.
- شارك في العديد من المؤتمرات والندوات التربوية والعلمية، وله مؤلفات وبحوث لغوية منشورة.

ظاهرة العدول وأثرها في صيغ الإفراد والتثنية والجمع عند الفراء في ضوء كتابه معاني القرآن

(دراسة تحليلية نقدية)

الملخَّص:

يتناول هذا البحث قضيةً لغويةً تتعلق بظاهرة العدول عند **الفراء**، وهي قضية عالجها غيره كالمبرد والزمخشري والزركشي، وهم يحطبون في حبل واحد.

علل **الفراء** الوجوه التي عرضها في كتاب معاني القرآن تعليلًا افتراضيًّا يعتمد على الفلسفة والمنطق، وغفل عن إدراك حقيقة كبرى، وهي قضية التكامل السياقي وروعة النسق التعبيري وانسيابية الآيات القرآنية وفق إيقاع موسيقي رائع، يعتمد على بناء اللفظ كما ورد في كتاب الله دون عدول من هذا الضمير إلى ذاك.

Abstract:

This resealed deals with the a linguistic question that is in touch with the case of pronoun , changes that Alfarra' discussed and others as well like zamakhshari, zarakshi, and Almobarred, all of them are liked Alfarra' discussed these subjects depending con logic and philosophy All these things were mentioned in his book titled with Quran's meanings He ignored fact in this course.

تمهيد:

لابد لنا – قبل تناول هذه المسألة بالدراسة والتحليل – من الوقوف قليلًا عند **الفراء**؛ لنلقي بعض الأضواء الكاشفة على شخصيته ومذهبه الفكري الذي سيكون له أثر كبير في توجهاته النحوية وفلسفته في التعامل مع هذه الظواهر شأن المفكرين بعامة، وأصحاب المذاهب المختلفة الذين تصدوا لعلوم التفسير وعلوم اللغة بفروعها المختلفة، كيونس بن حبيب، والكسائي، والمبرد، والزمخشري في الكشاف، وغير هؤلاء ممن أسسوا مدارس نحويةً قامت على أسس تميز كل مدرسة عن الأخرى بفكر يعتمد على الاجتهاد وقوة الجدل آخر الأمر.

أبو زكريا الفراء «مولى لبني أسد، من أهل الكوفة»[(١)]، كان أعلم الكوفيين بالنحو بعد الكسائي، أخذ عنه، وعليه اعتمد، وأخذ عن يونس بن حبيب، وأهل الكوفة يدعون أنه استكثر عنه، وأهل البصرة يدفعون ذلك»[(٢)].

(١) نزهة الألباء ٩٨.

(٢) بغية الوعاة جـ٢ ص٣٣٣.

«يحكى عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب، أنه قال: لولا **الفراء** لما كانت اللغة؛ لأنه خلصها وضبطها، ولولا **الفراء** لسقطت العربية؛ لأنها كانت تنازع ويدعيها كل من أراد»[١].

نشأته:

ولد أبو زكريا يحيي بن زياد **الفراء** مولى بني منقر في الكوفة، ويبدو أنه نشأ بها نشأته الأولى، وظل بها حتى ظهرت مواهبه، وبز أقرانه، فلقبوه **بالفراء**[٢]؛ «لأنه كان يفري الكلام»[٣].

مكانته العلمية:

لقد عاصر **الفراء** يونس بن حبيب والكسائي والخليل بن أحمد وسيبويه وغير هؤلاء من العلماء الأفذاذ[٤]، وكان إمامًا ثقة[٥]، متدينًا متورعًا، على تيه وعجب، وكان زائد العصبية على سيبويه، وجد كتابه

(١) نزهة الألباء ص٩٨، النهاية في طبقات القراء جـ٢ ص٣٧١، طبقات النحويين واللغويين ص١٣٢

(٢) الفهرست ص٩٨، وأنباه الرواة جـ٤ ص١٢.

(٣) بغية الوعاة جـ٢ ص٣٣٣.

(٤) انظر بغية الوعاة جـ٢ص٣٣٣ والمزهر جـ١ص٢٠٢_٢٠٣.

(٥) نزهة الألباءص٩٨

تحت رأسه، وكان يتفلسف في تصانيفه، ويسلك ألفاظ الفلاسفة[١]، وكان يقال: **الفراء** أمير المؤمنين في النحو[٢].

أوصلته مكانته العلمية إلى بلاط الأمراء والخلفاء؛ حيث كان له اتصال عابر بهارون الرشيد[٣]، أما مع المأمون فكان له شأن كبير؛ حيث تولي تأديب ولديه وتلقينهما النحو[٤].

عصره:

كان عصره يموج بالتيارات الفكرية الوافدة، والفلسفات التي تعد غريبةً على البيئة العربية التي تميل إلي البساطة والتيسير، وحمل هذه الراية المولدون من المتكلمين الذين عقدوا المسائل تأثرًا بالمنطق اليوناني الذي كان له دور هائل في موضوع القياس والتعليل، وكان الفراء لا يرتاح إلى هذه الأمور وإن كان قد انغمس فيها بعدئذ كما سنرى في كتابه المشهور «معاني القرآن» الذي سنركز عليه في دراستنا لمسألة العدول وأثرها في السياق التعبيري من وجهة نظره، ولعل هذا التبسط واضح في إملاءاته النحوية التي حاول من خلالها أن يبسط النحو؛ ليفهمه حتى الصبيان،

(١) بغية الوعاة جـ٢ص٣٣٣

(٢) نزهة الألباء ص١٠١.

(٣) طبقات النحويين واللغويين ص١٣١.

(٤) نزهة الألباء ص٩٩

يتضح هذا من قوله حينما أبى الوراقون أن يملوا على الناس ما أملاه عليهم: «فلما فرغ من إملائه خزنه الوراقون عن الناس؛ ليتكسبوا به، وقالوا: لا نخرجه إلى أحد إلا لمن أراد أن ننسخه له على أن كل خمس أوراق بدرهم؛ فشكا الناس إلى **الفراء**، فدعا الوراقين، فقال لهم في ذلك، فقالوا: نحن إنما صحبناك؛ لننتفع بك، وكل ما صنعته فليس للناس إليه من حاجة؛ فدعنا نعش به، فقال: قاربوهم تنفعوا وتنتفعوا، فأبوا عليه، فقال: سأريكم، وقال للناس: إني أريد أن أملي كتاب المعاني أتم شرحًا وأبسط قولًا من الذي أمللت، فجلس يملي..»[(١)].

عقيدة الفراء:

أما عقيدة **الفراء** التي كان لها مساس غير قليل بفكره ومذهبه النحوي واللغوي، فقد اختلف فيها بين المؤرخين:

قال الأزهري: «وكان من أهل السنة، ومذاهبه في التفسير حسنة»[(٢)].

وأما ابن النديم فقد أثبت له التفلسف فقال: «وكان **الفراء** يتفلسف في تأليفاته ومصنفاته، يعني أنه يسلك في ألفاظه كلام الفلاسفة...»[(٣)].

(١) نزهة الألباء ص٩٩، أنباه الرواة جـ٤ ص١٧.

(٢) تهذيب اللغة جـ١ ص٨

(٣) الفهرست ص٩٩

وأما القفطي فقال: «وكان الفراء يميل إلى الاعتزال»[1]، ولعل الرأي الحاسم في هذه المسألة هو ما ذهب إليه الدكتور أحمد مكي الأنصاري في كتابه أبو زكريا **الفراء** ومذهبه في النحو واللغة فقال: «وأبادر فأقول: إن أقرب الأقوال إلى الصحة هو القول الوسط، إذ إنه يتفق مع الخط الرئيسي لشخصية **الفراء**، وهو التحرر الذي يرتكز على أساس من السلفية الصالحة... بل يدين بمذهب الاعتدال بين المتطرفين من هؤلاء وأولئك...لهذا كله أرجح أنه كان سنيًّا يميل إلى الاعتزال»[2].

ونحن نرى من جانبنا أن الرجل كان – من خلال سيرته – سني الهوى، ولكن الاعتزال لما علت أمواجه، وراجت سوقه في القرن الثاني الهجري، ولا سيما بذهاب ريح بني أمية وسيطرة الموالي على أزمة الفكر في الدولة العباسية، وخاصةً في زمن المهدي وبنيه هارون الرشيد والمأمون والمعتصم، لما كان الأمر كذلك كان لابد من التزيي بزي أصحاب البدع والشعوبية الداعية إلى تحطيم العقيدة الإسلامية البسيطة وإعادة دولة بني ساسان، فظهرت المعتزلة وإخوان الصفا والقدرية والجبرية، وبثوا هذه الملل الغريبة في تصانيفهم كما رأينا في كتب الجاحظ، أحد أقطاب المعتزلة– كما هو معروف – ومن بعده ساروا على دربه كالأخفش وأبي

(١) أنباه الرواة جـ٤ ص١٣

(٢) أبو زكرياء الفراء ومذهبه في النحو واللغة ص٧٣

علي الفارسي وابن جني والزمخشري، وغير هؤلاء ممن جرفهم السيل أو دفعوا بالسيل إلى أعلى مستواه، فبلغ السيل الزبى كما يقولون، نعم لقد كان الفراء رغم أنه استتر بالسنة معتزلي التوجه معتزلي الفكر والفلسفة.

وفاته:

أجمع الرواة زمانًا ومكانًا على أن وفاة **الفراء** كانت في أثناء رجوعه في الطريق من مكة سنة ٢٠٦هـ.

تقديم:

ظاهرة العدول في اللغة العربية بعامة هي من الظواهر التي كثيرًا ما استوقفت علماء اللغة وأرباب علم النحو كثيرًا، فتتبعوها وبحثوا عن أسرارها وعجائبها ودلالاتها، وكان أكثر ما استوقفهم في هذه المسألة وجودها مبثوثةً في القرآن الكريم من وجهة نظرهم إلى جانب الإعجاز المعنوي والبياني والأدبي والفني ولا سيما القصص القرآني المعجز.

العدول لغويًّا: جاء في لسان العرب: عدل عن الشيء تعدل عدلًا وعدولًا؛ أي حاد، وعن الطريق جار، وعدل إليه عدولًا: رجع.

والعدل: أن تعدل الشيء عن وجهه، تقول: عدلت فلانًا عن طريقه، وعدلت الدابة إلى موضع كذا...[1].

وأما المقصود بالعدول كمصطلح لغوي نحوي في بحثنا هذا فهو أن يعدل المتكلم أو يحيد عن المعني المراد بإيراد اللفظ إلى معنًي آخر، ولا نريد أن نستطرد كثيرًا وراء دلالة هذا المصطلح؛ لأنه يدور في دوائر لا تكاد تنتهي، وأبرزها ما يعنيه مصطلح الحديث من توفر خصائص معينة في سند الحديث أهمها العدول، أي: العدل الضابط إلى العدل الضابط إلى منتهاه،

(١) لسان العرب مادة (عدل) جـ١ ص ٤٣٤-٤٣٥.

فالراوي لا بد أن يتوفر فيه هذا الشرط من الثقة والعدل والبعد عن الخوارم والجروح التي أوردها علماء الحديث.

إذن نحن في بحثنا هذا الموسوم بـ«ظاهرة العدول وأثرها في السياق التعبيري عند **الفراء**» نقصد المفهوم النحوي اللغوي لهذا المصطلح، فالعدول من الظواهر اللغوية الكثيرة التي أوردها **الفراء** في تفسيره في كتاب معاني القرآن.

ولكن الذي نبتغيه من دراسة هذه الظاهرة اللغوية النحوية: هو ظاهرة العدول المتمثلة في أربعة أمور «وهي دراسة تحليلية عند أبي زكريا **الفراء** من خلال كتابه معاني القرآن، وهي:

- استعمال المفرد موضع المثنى.
- استعمال المثني موضع المفرد.
- استعمال المفرد موضع الجمع.
- استعمال الجمع موضع المفرد.

ولعل هذه الظاهرة من أدق الظواهر التي استوقفتني في هذا البحث، وقد عالجها كثير غير الفراء كالزجاج والزمخشري وأبي حيان الأندلسي والطبرسي والبيضاوي، وقد كنت قد تقدمت للحصول على درجة أستاذ مشارك عام ٢٠١١، بأبحاث من بينها بحث تكلمت فيه عن ظاهرة العدول وأثرها في السياق عند الزمخشري، وناقشت فيها رأي الزمخشري لبعض

المسائل اللغوية، نشر هذا البحث في مجلة كلية الآداب بجامعة أم القرى العدد ٤ يوليو ٢٠١٠، ولقد نالت هذه الدراسة إعجاب أحد المحكمين فأوصى يومها أن أهتم بمثل هذه الدراسة؛ لأقارن وأقارب وأوازن ما بين دراسة ظاهرة العدول وأثرها في السياق عند كل من الفراء والزمخشري وكانت تعليلاتهم في غاية الدقة والجمال؛ لأنها في مضمونها تمس جوهر الإعجاز اللفظي التعبيري في النسق القرآني، ثم إن هذا الموضوع يعد من الموضوعات التي لم يقف عندها الباحثون وقفات تأملية فاحصةً، تعتمد على الغوص وراء المعاني الخفية لهذا الفن التعبيري، الذي سماه الباحثون القدماء بفن الالتفات أو فن تحول الضمير من المخاطب إلى المتكلم، أو من المفرد إلى الجمع أو من الجمع إلى المفرد وهكذا، وإني لأحسب أن الآيات القرآنية لا تفهم معانيها الحقيقية إلا أن يكون المفسر ملمًا بفن الالتفات حتى يستطيع توجيه المعنى توجيهًا صحيحًا، والله ورسوله أعلم.

أولًا: استعمال المفرد موضع المثنى:

سليقة المعلم تلحظها واضحةً عند **الفراء**[١] حيث كان صاحب ذوق ملم في تذوق الأساليب العربية، ولقد روي عن ثعلب أنه روى عن أبي نجدة، فقال عنه: «لما تصدى أبو زكريا يحيى بن زياد **الفراء** للاتصال بالمأمون، كان يتردد إلى الباب؛ فلما أن كان ذات يوم جاء ثمامة، فقال: فرأيت له أبهة أدب، فجلست إليه ففاتشته عن اللغة، فوجدته بحرًا، وفاتشته عن النحو فشاهدته نسيج وحده، وعن الفقه فوجدت فقيهًا عارفًا باختلاف القوم، وبالنجوم ماهرًا، وبالطب خبيرًا، وبأيام العرب وأشعارها حاذقًا، فقلت له: من تكون؟ وما أظنك إلا **الفراء!** فقال: أنا هو...»[٢].

هذه هي صفات أبي زكريا، فلقد كان عالمًا ذكيًّا، لقد أحسن فهم السياق القرآني كثيرًا، فقد أجاد معرفة واستعمال العربية وخصوصًا منطقها الخاص، واستعمال المفرد بدلًا من المثنى، ونظير ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكسِبْ خَطِيئَةً أَو إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا﴾[٣]، فيقال هنا: «كيف قال به وقد ذكر الخطيئة والإثم؟»[٤]؛ حيث إنه استعمل الضمير العائد على

(١) أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة ص٢٤٥.

(٢) نزهة الألباء ص١٠١.

(٣) النساء آية١١٢.

(٤) معاني القرآن جـ١ ص٢٨٦.

المفرد في قوله به؛ ليدل به على المثنى، وهما: الخطيئة والإثم، وكان السياق يقتضي أن يقول بهما.

و**الفراء** يرى أن هذا «جائز بأن يكنى عن الفعلين وأحدهما مؤنث بالتذكير والتوحيد، ولو كثر لجاز الكناية عنه بالتوحيد؛ لأن الأفاعيل يقع عليها فعل واحد، فلذلك جاز، فإن شئت ضممت الخطيئة والإثم فجعلته كالواحد، وإن شئت جعلت الهاء للإثم خاصةً»[(١)]..

ونظير ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوا تِجَارةً أَو لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيهَا﴾[(٢)]، فجعله للتجارة... ولو ذكر على نية اللهو لجاز»[(٣)]..

وقال النحاس: «فأما قوله جل وعز: ﴿انْفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ ولم يقل: إليهما، فتقديره على قول محمد بن يزيد ﴿وَإِذَا رَأَوا تِجَارَةً اِنْفَضُّوا إِلَيهَا﴾، ثم عطف الثاني على الأول، فدخل فيما دخل فيه، وهذا كله جائز أن يعود على الأول أو الثاني أو عليهما»[(٤)].

(١) معاني القرآن للفراء ص٢٨٦.

(٢) الجمعة آية١١

(٣) معاني القرآن جـ١ ص٢٨٧

(٤) معاني القرآن للنحاس ص ٤٢٩-٤٣٠.

أما الزمخشري فقال: «فإن قلت: كيف قال إليها وقد ذكر شيئين؟ قلت: تقديره: إذا رأوا تجارةً انفضوا إليها أو لهوًا انفضوا إليه، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه... وقرئ إليهما»(١).

وقال ابن عطية: وقال تعالى: «إليها»، ولم يقل: «إليهما» تهممًا بالأهم(٢)؛ حيث أعاد الضمير على التجارة دون اللهو... إذ كانت هي سبب اللهو، ولم يكن اللهو سببها»(٣)، ونظير ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾(٤).

قال **الفراء** معلقًا على ذلك: «يقال: إنهما كانا اثنين فلان ابن دهر، والآخر قدار، ويقل: أشقياها، وذلك جائز لو أتى؛ لأن العرب إذا أضافت أفعل التي يمدحون بها، وتدخل فيها «من» إلى أسماء وحدوها في موضع الاثنين والمؤنث والجمع، فيقولون للاثنين: هذان أفضل الناس، وهذان خير الناس»(٥).

(١) الكشاف جـ٤ ص٣٩٧

(٢) المحرر الوجيز جـ٥ ص٣١٠.

(٣) الدر المصون جـ٦ ص٣١٨.

(٤) الشمس آية ١٢.

(٥) معاني القرآن جـ٣ ص٢٦٨.

ولقد استند **الفراء** لسماعه في ذلك عن العرب؛ حيث يقول: «... وأنشدني آخر في التوحيد، وهو يلوم ابنين له:

يـا أخبـث النـاس كـل النـاس قـد علمـوا لـو تسـتطيعان كنـا مثـل معضـاد

فوحد، ولم يقل: يا أخبثي، وكل صواب، ومن وحد في الاثنين قال في الأنثى أيضًا: هي أشقى القوم، ومن ثنى قال: هي شقيا النسوة على فعلى»[(١)]، ولقد قالت العرب بذلك؛ حيث قال **الفراء**: «وأنشدني المفضل الضبي:

غبقتـك عظماهـا سـنامًا أو انـبرى برزقـك بـراق المتـون أريـب[(٢)]

أما الزمخشري فيري في هذه المسألة وجهًا آخر نفذ إليه من خلال الجانب الدلالي للعلاقة الموجودة بين المفرد والمثنى، يتجلى ذلك في إدراكه لدور السياق في توجيه معنى اللفظ ودلالته بين المفرد والمثنى[(٣)]، ومن ذلك في ما جاء على لسان فرعون في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾[(٤)]؛ حيث تحول الكلام من خطاب الاثنين في قوله: «ربكما»، إلى خطاب الواحد في قوله تعالى «يا موسى»[(٥)].

(١) معاني القرآن جـ٣ ص٢٦٨.

(٢) معاني القرآن للفراء جـ٣ص٢٦٨.

(٣) انظر بحثنا السياق وأثره في العدول عن مطابقة العدد عند الزمخشري ص١٤٨.

(٤) طه آية٤٩.

(٥) انظر بحثنا السياق وأثره في العدول عن مطابقة العدد عند الزمخشري ص١٤٨

على أية حال، خاطب فرعون الاثنين بخطاب الواحد فمن ربكما يا موسى؟؛ لأن الموقف موقف تحد من فرعون، أمام قوي، وهو يعرف أن موسى قوي بعد معجزة العصا، وإني لأرى بأن المسألة ليست كما يذهب الزمخشري بأن موسى هو الأصل في النبوة، فهو لا يعترف أصلًا بنبوة موسى وهارون، ولكنه جدل الأقوياء، وقد نحس مع التحدي من جانب فرعون شيئًا من الاستخفاف في قوله: ﴿يا موسى﴾، هذا شيء نلمسه فيما حكته العرب عند التباهي بالتكاثر قال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾(١).

والذي نراه- هنا -أن كل ما أورده الفراء والزمخشري والقرطبي في تعليل ظاهرة العدول بالتعبير بالمفرد عن المثنى، هو شيء يعتمد على الاجتهاد، وباب الاجتهاد مفتوح في المسائل اللغوية إلا في آيات الكتاب الحكيم الذي فصلت آياته من لدن عزيز حكيم.

أما في مسألة عودة الضمير في «به» من الآية القرآنية في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَو إِثمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ﴾ فليس فيها تأويل، ذلك أن الضمير هنا يعني الأمر أو المسألة، فهو لم يرم بهذا الأمر بريئًا، والأمر يشمل الواحد والأكثر، فهنا إحكام في السياق، وضبط للنسق القرآني، وكذلك الشأن مع ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذا رَأَوا تِجَارةً أَو لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيهَا﴾؛

(١) التكاثر آية ١.

حيث إن الضمير في قوله إليها يشمل الحالة الواقعة يومئذ، فهنا إحكام في السياق «لا تبديل لكلمات الله»، ولا اجتهاد وراءها، وليس وراءها جواز أو وجوب، قد يكون ذلك موجودًا في كلام البشر، ولا سيما الموالي الذين دخلوا في الإسلام، فمنطقوا المسائل ووضعوا القياس والفروض.

ثم إن هذه الظاهرة التي سموها بـ«ظاهرة العدول» تنسجم آخر الأمر مع ما أشار إليه **الفراء** من مبدأ الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، وقد رد بذلك على المعتزلة ورأسهم النظام -«مع أنه محسوب عليهم – حيث أنكر هؤلاء الاعتزاليون الإعجاز اللغوي في القرآن، فتصدى لهم الفراء، ونادى بأن لغة القرآن أفصح أساليب العربية على الإطلاق، وطفق يرد على المعتزلة من جهة، وعلى رواة الشعر وعلماء الأخبار من جهة أخرى، أولئك الذين لا يريدون أن يلتمسوا إعجاز القرآن في قوالبه اللغوية، بل يرون كمال الفصاحة في لغة عرب البادية»[1].

إذن، فهذه الروعة السياقية المتسقة بنسقها التعبيري في آيات التنزيل جاءت من إعجاز إلهي لكتابه الكريم، وقوله تعالى المحكم المفصل في لفظه وفواصله ودلالته، ثم إن هذا الأثر الجميل جاءه أيضًا من «موسيقا

(١) أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة ص ٥١٢.

الفواصل القرآنية التي ذكرها **الفراء**، واتخذ منها نظريةً راح يدافع بها عن كتاب الله في نطاق مبدؤه الإعجاز اللغوي»[1].

ويبقى -هناك -شيء قد غاب عن فكر هؤلاء وهؤلاء ممن تصدوا لهذه الدراسات المتعلقة بدلالة اللفظ القرآني معنىً وحسًا وظاهرًا وباطنًا، إن ذلك هو الموسيقي الخفية التي تسري في العبارة وتناغمها مع العبارة الأخرى وبين الحروف التي تتكون منها كل لفظة فتجعل السياق متسقًا متناغمًا وهذا يلتقي مع موسيقا النفس الإنسانية التي انغرزت في الحس البشري منذ النشأة الأولى، وارتبطت بالمنظومة الكونية كلها إيقاعًا وتناغمًا وتفاعلًا، انظر إلى الطفل الصغير حين يسمع الموسيقى، وانظر إلى الطير صافات مأخوذات بمزامير داود -عليه السلام-، وانظر إلى الحيوان وحداء الإبل كيف يفعل الأفاعيل بالقافلة فتغذ السير منسجمةً غير شاعرة بالنصب، وكذا أفاعي الهنود وكيف تتراقص مع صوت الناي..

إنه سر خفي أودعه الله في خلقه، والإنسان طروب بطبعه، وحينما يسمع الموسيقى الهادئة الخفية يكاد يخرج عن طوره وثيابه؛ ليعود إلى أصله التركيبي الموسيقي، وانظر إلى تجويد الآيات كيف يترك أثره في السامعين، من هنا ينبغي أن نحكم على ظاهرة العدول من المفرد إلى

(١) أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة ص ٥١٢.

المثنى إلى الجمع، فلقد جاءت لتلبي هذا الجانب الموسيقي بين الألفاظ والفواصل حتى تعطي الدلالة الروحية المبتغاة، والإنسان بالروح لا بالجسم إنسان.

ثانيًا: استعمال المثنى موضع المفرد:

وهنا نجد الفراء يلحظ ملحظًا دقيقًا في الاستعمال اللغوي[١]؛ حيث يقول في معانيه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ﴾[٢]، إنما يخرج من أحدهما[٣]؛ أي: يخرج من الملح دون العذب[٤]، ومع ذلك كنى بالتثنية فقال: «منهما»، وخرج عليه ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ سَرَبًا﴾[٥]، وإنما نسيه يوشع فأضافه إليهما[٦]، ألا ترى أنه قال لموسى: ﴿فإِنِّي نَسِيتُ الحُوتَ﴾[٧].

وهنا نلمح نكتةً بلاغيةً قد غابت عن ذهن **الفراء**، وهي أن ﴿نسيا حوتهما﴾ كان النسيان شيئًا من الصرفة التي صرف الله بها ذهنيهما عن التذكر؛ ليتم الأمر حسب تدبير الله، ففي تلك اللحظة، وذلك المكان

(١) أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة ص٢٤٥.

(٢) الرحمن آية٢٢.

(٣) معاني القرآن جـ٢ ص٢٦٨.

(٤) معاني القرآن جـ٢ ص١٥٤، جـ٣ ص١١٥.

(٥) الكهف آية٦١.

(٦) معاني القرآن جـ٢ ص١٥٤.

(٧) معاني القرآن جـ٢ص١٨٠.

مجمع البحرين ضرب النسيان على موسى ويوشع، ولم يضرب على واحد، حتى لا يذكر الذاكر الناسي، ولما قال موسى: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾، قال يوشع عليه السلام: ﴿إني نسيت الحوت﴾، فأسند الأمر إلي نفسه تواضعًا وإكبارًا واحترامًا لسيده، فأشعره أن النسيان كان من جانبه هو، وهكذا؛ لأن سورة الكهف مدرسة اجتماعية أخلاقية تربوية، ومنه ما خرج عليه قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[١].

قال **الفراء**: «ذكر المفسرون إنهما بستانان من بساتين الجنة، وقد يكون في العربية: جنة تثنيها العرب في أشعارها»[٢]، ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَالسّارِقُ والسّارِقةُ فَاقطعُوا أيْدِيَهُمَا﴾[٣]، ولم يقلْ: يديهما، والمراد: فاقطعوا يمينًا من هذا ويمينًا من هذا، ويجوز في اللغة؛ فاقطعوا يديهما وهو الأصل، ولقد سمع ذلك عن العرب، يقول **الفراء**: أنشدني بعض العرب:

ومهْمَهَيْنِ قَذَفَينِ مَرْتَينْ   قطعتُه بالأمِّ لا بالسَّمْتَيْنْ[٤]

(١) الرحمن آية٤٦.

(٢) معاني القرآن جـ٣ ص١١٨.

(٣) المائدة آية٣٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن جـ٦ ص١٦٩.

يريد: مهمهًا واحدًا[١]، وها هو يستند إلى ما سمعه عن العرب في شاهد آخر؛ حيث يقول: وأنشدني آخر:

يســـعي بكبـــداء ولهـــذمين[٢] قـــد جعـــل الأرطـــاة جنتـــين[٣]

قال **الفراء** معقبًا على ذلك: «وذلك أن الشعر له قواف يقيمها الزيادة والنقصان، فيحتمل ما لا يحتمله الكلام.. والكبداء: القوس، يقال: لهذم ولهذم لغتان، وهو السهم»[٤].

وما أوسع خيال العربي، انظر إلى قول أبي تمام:

يـــا صـــاحبي تقصـــيا نظريكمـــا تريـــا وجـــوه الأرض كيـــف تصـــور[٥]

فهو يخاطب اثنين على سنة شعراء الجاهلية، فهي هنا تقليد تعبيري، وليس القرآن المعجز بتقليد تعبيري، بل جاء بلسان عربي مبين، انظر إلى كلمة مبين بما تحمله من دلالات البلاغة والقوة الإعجازية.

(١) معاني القرآن جـ٣ص١١٨.

(٢) لهذم: هو السيف الحاد. لسان العرب :مادة (لهذم)، جـ١٢ ص٥٥٦.

(٣) معاني القرآن جـ٣ص١١٨.

(٤) معاني القرآن جـ٣ ص١١٨.

(٥) ديوان أبي تمام، جـ٢ ص١٩٤.

هذا، ويجب أن ننظر إلى القرآن نظرةً مغايرةً لنظرتنا إلى أسلوب العرب في خطابهم بالتثنية والجمع، والمفرد، إنه كلام معجز في بيانه، ومعانيه، وبلاغته، ولفظه، وهذه أشياء لم يلتفت إليها شيخ الاعتزال الزمخشري، ولا **الفراء** من قبله، ولا الأخفش سعيد بن مسعدة، ولا أبو علي الفارسي ولا تلميذه الفذ ابن جني، فكل هؤلاء من أرباب الاعتزال.

قال **الفراء** معقبًا على ذلك: «العرب تأمر الواحد والقوم بما يؤمر به الاثنان، فيقولون للرجل: قوما عنا، وسمعت بعضهم يقول: ويحك! ارحلاها وازجراها[1].

ثم عقب **الفراء** على ذلك قائلًا: «ونرى أن ذلك منهم أن الرجل أدنى أعوانه في إبله وغنمه اثنان، وكذلك الرفقة، أدني ما يكونون ثلاثةً: فجرى كلام الواحد على صاحبيه، ألا ترى الشعراء أكثر شيء قيلا: يا صاحبي، يا خليلي»[2]، وعليه قال امرؤ القيس:

خليلي، مرا بي على أم جندب نقضي لبانات الفؤاد المعذب[3]

ثم قال:

(١) ديوان أبي تمام، جـ٢ ص١٩٤.

(٢) معاني القرآن للفراء جـ٣ ص٧٨.

(٣) ديوان امرئ القيس ص٧١.

ألـــم تـــر أني، كلمـــا جئـــت طارقًـــا وجـــدت بهـــا طيبًـــا وإن لـــم تطيـــب[1]

فقال: «ألم تر، فرجع إلى الواحد، وأول كلامه اثنان»[2]، قال: وأنشدني آخر:

خليلـــي قومـــا في عطالـــةَ فـــانظُرا: أنـــارًا تـــرى مـــن نحـــو بـــابين أو برقـــا؟[3]

قال أبو بكر الأنباري معلقًا في أحد أقواله على البيت السابق: «والقول الثاني أن يكون خاطب رفيقًا واحدًا وثنى؛ لأن العرب تخاطب الواحد بخطاب الاثنين، فيقولون للرجل: قوما، واركبا...»[4]، والدليل على أن الخطاب لواحد قول امرئ القيس فيما بعد:

أصـــاح تـــرى برقًـــا أريـــك ومـــيضه كلمـــح اليـــدين في حبـــي مكلـــل[5]

ومنه قول الله تبارك وتعالى مخاطبًا لمالك خازن جهنم ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾[6]، فثنى وإنما يخاطب واحدًا[7].

(١) ديوان امرئ القيس ص٧١، ورواية الديوان ألم ترياني.

(٢) معاني القرآن جـ٣ص٨٩، وانظر مجمع البيان جـ٩ص١٨٣.

(٣) معاني القرآن جـ٣ ص٨٩.

(٤) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ص١٦.

(٥) ديوان امرئ القيس ص٥١.

(٦) سورة ق آية٢٤.

(٧) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ص١٦.

أما الزجاج فيرى أن الخطاب في الآية للملكين، يتضح هذا من قوله: «الوجه عندي – والله أعلم – أن يكون أمر الملكين؛ لأن ﴿أَلْقِيَا﴾ للاثنين[١]، وقيل: العرب تخاطب الواحد مخاطبة الاثنين تأكيدًا»[٢].

وفي هذا السياق نفسه أورده الزركشي في كتاب البرهان في علوم القرآن في قول أبي علي الفارسي في ظاهرة العدول عن المفرد بالمثنى في قوله تعالى: ﴿عَلَى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتينِ عَظِيم﴾[٣]، فقال: «إن ظاهر اللفظ يقتضي أن يكون من مكة والطائف جميعًا، ولما لم يمكن أن يكون منهما دل المعنى على تقدير: ﴿رَجُلٌ مِنْ إِحْدَى القَرْيَتَينِ﴾[٤]، وجعل منه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾[٥]؛ أي: في السموات، والقمر إنما هو في سماء واحدة منهن، قيل هو في السماء الدنيا، وإنما جاز ذلك؛ لأن بين السموات ملابسةً فصح ذلك، كما يقال زيد في المدينة، وإنما هو في زاوية من زواياها...»[٦]، وهذا كثير في الشعر العربي، وفي آيات القرآن الكريم.

(١) معاني القرآن وإعرابه جـ٥ ص٤٥.

(٢) الدر المصون جـ٦ ص١٧٨.

(٣) سورة الزخرف آية ٣١.

(٤) سورة نوح آية ١٦

(٥) البرهان جـ٣ ص٣.

(٦) الدر المصون جـ٦ ص٣٨٤

وبعد، فإن كل هذه التخريجات، التي ساقها **الفراء** والمازني والزمخشري والزركشي هي تخريجات تستند إلى الاجتهاد، وإعمال الذهن القائم على الافتراضات المنطقية، والارتكاز أحيانًا على اللهجات العربية كمخرج لهذه الظواهر التي سموها العدول من ضمير إلى آخر، قد يكون ذلك واردًا في الشعر العربي لضرورات وزنية يحكمها البحر الشعري، والروي والقافية، أو أن العربي حين يخاطب المفرد بالمثنى كما أورده في مشاهدهم أو شواهدهم، يكون العربي ملتزمًا بعدد الركب ثلاثةً حقًا أو تخيلًا؛ ليبعث الأنس في نفسه حين اجتيازه المفازات الموحشة أو وقوفه على أطلال الراحلين، إنها سنة شعرية تقليدية، لها مساس بنفسية العربي ذي الخصوصية المتفردة بين شعوب الأرض.

أما في القرآن الكريم فالأمر مختلف جدًّا، ذلك أنه ما من حرف يأتي في آيات التنزيل إلا وله وظيفته وخصوصيته ودلالته، لا يحيد عنها ولو استبدل به غيره لاختل النظم وانفرط العقد، ففي الآية ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ﴾[1]، جاء الضمير في قوله تعالى» منهما» في مكانه؛ ليعطي النغم الموسيقي المحكم، إنه كلام الله، فتأمل لو قلنا: منه كيف ستكون العبارة، ثم إن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من البحرين، هذا عذب فرات،

(١) سورة الرحمن آية٢٢.

وهذا ملح أجاج، ففي قوله تعالى: ﴿مَرَجَ البَحْرَيَنِ يَلْتَقِيَانِ﴾[1]، فالعذب اختلط بالملح، ومن مائهما خرج اللؤلؤ والمرجان.

وأما قوله: «جنتان»، فلماذا لا يكون لمن خاف مقام ربه جنتان، الفردوس والمأوى مثلًا، أو جنتان في مكان معلوم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، إنهم يقيسون دلالات القرآن بمقاييس ألفاظ البشر.

وأما قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾[2]؛ هنا يعجبني من فسر ذلك بأن الخطاب موجه للسائقين من ملائكة الله، وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد.

وأما ما يقوله أبو زكريا **الفراء**: من أن من سنن العرب أن تأمر الواحد بلفظ أمر الاثنين نحو: افعلا ذلك، موردًا لذلك أمثلةً من الشعر، فإن كان في الشعر فلضرورة وزنية، وإن كان في غيره فالأمر مختلف، كما في قوله: افعلا ذلك، وارحلاها وازجراها للواحد، فذلك لإشباع الحركة؛ لأن بعض القبائل تمد الحركة وتمط كلامها؛ فـ«ارحلاها» أخف من «ارحلها» بتسكين اللام، وكأن السكون قيد انسياب اللفظ واندفاعه.

(١) سورة الرحمن آية ١٩.

(٢) سورة ق آية ٢.

وكذلك كل هذه الظواهر التي مررنا على ذكرها؛ حيث إن كل لفظ جاء متسقًا منتظمًا في مكانه؛ ليستقيم السياق، ويتم النسق التعبيري القرآني وفق بناء لفظي هندسي موسيقي معجز، ﴿ذَلِكَ الكِتَابُ لَا رَيبَ فِيهِ﴾[1]، لغةً ومعنًى وتأويلًا، فكل شيء في مكانه المنتظم، وكل حرف لا يعدله حرف آخر، وكل ضمير لا يعدله ضمير آخر، وهذا هو كلام الله المعجز الذي أعجز الإنس والجن.

(١) سورة البقرة آية ٢.

ثالثًا: استعمال المفرد موضع الجمع:

لم يختلف الكلام القرآني عن كلام العرب عامةً بالنسبة لاستعمال الكلمة مفردةً ومجموعةً، لكن بلاغة القرآن الكريم تظهر جليةً في استعمالاته للعلاقة ما بين الإفراد والجمع[١]؛ حيث يرى **الفراء** أن ذلك يأتي كثيرًا في اسم الجنس، أو قافية «أل» التي للاستغراق، ونظير ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾[٢].

قال **الفراء**: «وقال» الدبر» فوحد، ولم يقل الأدبار، وكل جائز، والصواب أن تقول: ضربنا منهم الرؤوس والأعين، وضربنا منهم الرأس واليد، وهو كما تقول: إنه لكثير الدينار والدرهم، تريد الدنانير والدراهم»[٣].

وقال الزمخشري- أيضًا- معلقًا على الآية: ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ أي: الأدبار[٤].

وقال القرطبي: «الدبر اسم جنس كالدرهم، والدينار فوحد، والمراد الجمع لأجل رءوس الآي[٥].

(١) السياق وأثره في العدول عن مطابقة العدد عند الزمخشري ص١٥٧.

(٢) القمر آية ٤٥.

(٣) معاني القرآن للفراء جـ٣ص١١٠.

(٤) الكشاف جـ٤ ص٣١٥.

(٥) الجامع لأحكام القرآن جـ١٧ص١٤١

قال سيبويه: «ومما جاء في الشعر على لفظ الواحد يراد به الجمع قول الشاعر:

كلوا في بعض بطنكم تعفوا فإن زمانكم زمن خميص[1]

حيث استعمل الشاعر المفرد: بطنكم ووضعه في موضع الجمع»[2]؛ أي: بعض بطونكم[3].

ومنه قول علقمة بن عبدة:

بها جيف الحسرى فأما عظامها فبيض وأما جلدها فصليب[4]

قال الأعلم الشنتمري: «الشاهد فيه وضع الجلد موضع الجلود[5]، فاجتزئ بالواحد عن الجمع[6]؛ لأنه اسم جنس ينوب واحده عن جميعه، فأفرده ضرورةً لذلك»[7].

ومنه قول الشاعر:

(١) الكتاب جـ١ص٢١٠، وشرح المفصل جـ٦ص٢١، أمالي ابن الشجري جـ٢ص٤٨، الدر المصون جـ١ص١٠٨.

(٢) أمالي ابن الشجري جـ٢ص٢١١.

(٣) الدر المصون جـ١ص١٠٨.

(٤) شرح ديوان علقمة بن عبدة الفحل ص٢٧.

(٥) تحصيل عين الذهب من معدن جواهر الأدب في علم مجازات العرب ص١٦٩.

(٦) شرح ديوان علقمة بن عبدة الفحل ص٢٨.

(٧) تحصيل عين الذهب من معدن جواهر الأدب في علم مجازات العرب ص١٦٩.

لا تنكـــروا القتـــل وقـــد ســـبينا في حلقكـــم عظـــم وقـــد شـــجينا[١]

«الشاهد فيه وضع الحلق موضع الحلوق»[٢]، ونظير ذلك في التنزيل قوله تعالى: ﴿وَالمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾[٣]؛ حيث أوقع ظهير في موضع ظهراء، وقال الفراء: «يريد أعوانًا، ولم يقل: ظهراء، ولو قال قائل: إن ظهيرًا لجبريل، ولصالح المؤمنين، والملائكة، كان صوابًا، ولكنه حسن أن يجعل الظهير للملائكة خاصةً، لقوله: «والملائكة» بعد نصرة هؤلاء ظهير»[٤] وهو بمعنى الجمع[٥].

كما أوقع رفيق في موضع رفقاء»[٦]، كما في قوله تبارك اسمه وجلت عظمته: ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾[٧] وقد اتسع هذا في فعيل، كظهير ورفيق في الآيتين، وكنجي، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾[٨]؛ حيث أوقع «نجيًّا» في موقع «أنجية»، وعليه أنشد الراجز:

(١) الكتاب جـ١ ص٢٠٩.

(٢) تحصيل عين الذهب من معدن جواهر الأدب في علم مجازات العرب ص١٦٩.

(٣) التحريم آية ٤.

(٤) معاني القرآن جـ٣ ص١٦٧.

(٥) الجامع لأحكام القرآن جـ١٨ ص١٨٣.

(٦) أمالي ابن الشجري جـ٢ ص٢١١.

(٧) النساء آية ٦٩.

(٨) يوسف آية ٨٠.

وما نطقوا بأنجية الخصـوم[١]

وقال سحيم بن وثيل اليربوعي:

إني إذا ما القوم كانوا أنجيه[٢]

وكإيقاع «كثير» في موضع «كثيرين»، «وقليل» في موضع «قليلين»[٣]، فكثير جاء مفردًا موضع الجمع في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾[٤].

وأما ما جاء مفردًا موضع الجمع ففي قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُور﴾[٥]، فالشكور اسم جنس صيغ على مثال فعول للمبالغة، كالعفو والغفور، فالمعني في الآية: وقليلون من عبادي الشاكرون، وكون اسم الجنس مشتقًا قليل، وإنما يغلب على أسماء الأجناس الجمود، كالدينار والدرهم، والقفيز والإردب، إنما يريدون: عزت الدنانير والدراهم، وكثرت القفزان والأرادب.

(١) أمالي ابن الشجري جـ٢ص ٢١١.

(٢) لسان العرب مادة (نجا) جـ١٥ ص٣٠٨.

(٣) أمالي ابن الشجري جـ٢ص٢١٢.

(٤) النساء آية١.

(٥) سبأ آية ١٣.

ومن ذلك الملك والإنسان»[١]، وعليه ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِيَ شَفَاعَتُهُمْ شَيئًا[٢]﴾.

قال **الفراء**: فجمع، وإنما ذكر ملكًا واحدًا؛ لأنه في تأويل جمع، وذلك أن كم تدل على أنه أراد جمعًا، والعرب تذهب بأحد وبالواحد إلى الجمع في المعنى، يقولون: هل اختصم أحد اليوم؟، والاختصام لا يكون إلا للاثنين، فما زاد[٣]، ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿وإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾[٤]، ثم أكمل فقال: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾[٥].

قال **الفراء** معقبًا على هذه الآية: «وإنما ذكر قبلهم الإنسان مفردًا، والإنسان يكون واحدًا، والمراد معنى الجمع[٦]، ونظير ذلك، قوله تعالى:

(١) أمالي ابن الشجري ج٢ص٢١٢.

(٢) النجم آية٢٦.

(٣) معاني القرآن ج٣ص٩٩.

(٤) الشورى آية ٤٨.

(٥) الشورى آية ٤٨.

(٦) الكشاف ج٤ ص١٤٢.

﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ القُرآنَ خَلَقَ الإنْسَانَ﴾[1]، قال القرطبي: وقيل: الإنسان يراد به جميع الناس فهو اسم للجنس[2].

فالنسق التعبيري القرآني والإيقاع المتناسب، والمتوازن كأنه يقاس بأداة هندسية متقنة، أجل» لقد خوطب المفرد في قوله تعالى بـ ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ﴾ والمقصود به- هنا- الوليد بن المغيرة، ولكن الخطاب يشمل الإنسانية قاطبةً، لجحودها ونكرانها لنعم الله، حتى إذا جاء الخطاب بـ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾[3] كان النسق البياني الإبداعي يتطلب الجمع حتى تتوازن العبارة وتتناغم في إيقاع موسيقي مؤثر، حتى إذا ما تم ذلك ذكر الإنسان المفرد في آخر الآية، وهذا سر عظيم من أسرار البلاغة القرآنية.

كما روي عن الحجاج أنه كان يقول في خطبه: «يا أيها الإنسان، وكلكم ذلك الإنسان»[4]، ونظير ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيفِي فَلَا تَفْضَحُون﴾[5].

(١) الرحمن آية١_٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج١٧ ص١٤٨.

(٣) انظر السياق وأثره في العدول عن مطابقة العدد عند الزمخشري ص١٦٠.

(٤) البرهان ج٢ص٢٣٣.

(٥) الحجر آية٦٨.

والذي نذهب إليه، أن كلمة» ضيف» -هنا -جاءت جمعًا، وليست مفردًا، فضيف تجمع على ضيف، وضيفان، وضيوف، فاللفظ متلائم، وقد تكون «ضيف» اسم مصدر عبر به عن الجمع، فلا غرابة في ذلك، وكذلك ولد تجمع على «ولد، وولدان، وأولاد»، تقول العرب الله منحك المال والولد والأنعام، فليس في القرآن تعارض بين اللفظ والمعنى.

وبعد...، فإن المسألة هنا في كلام الله ليست مسألة جواز أو وجوب كما ذهبت الجمهرة التي أتينا على ذكرها، **فالفراء** يعلل ذلك، أعني ورود المفرد في موضع الجمع، بأن الأمر يتعلق باسم الجنس أو ما فيه «أل» التي للاستغراق كما يقول، وينسحب هذا التعليل على كلمة الدبر بدل الأدبار، وهذا الذي نراه هنا أن هذا التبرير قد ينطبق على كلام البشر استنادًا إلى بعض اللهجات العربية، مع أن القرآن الكريم نزل بأفصح اللغات وهي لغة قريش التي ورد ذكرها في القرآن الكريم.

حتى لو افترضنا أن الأمر كما يقولون باعتبار الدبر تعبيرًا عن الجمع، لكننا نلحظ أن إفراد المصدر هنا يعطي دلالةً أعمق من الجمع، من حيث إحكام اللفظ، ومن حيث إيحائه، وموسيقاه المرتبطة بالفاصلة القرآنية التي تعطي في النهاية نغمًا تجويديًّا آسرًا، ومطلوب في السنة أن يتغنى بالقرآن كما كان الشأن مع ابن مسعود، الذي قال عنه رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ كأنه أعطي مزمارًا من مزامير داوود عليه السلام.

فالمسألة -هنا -ليست يجوز أو لا يجوز، لكنها تتعلق بالنظم والنغم المحكم الذي فطر في وجدان الإنسان وحسه.

انظر إلى قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَّمَهُ البَيَانَ﴾[1]، وإن من البيان لسحرًا، وسورة الرحمن هي السورة التي يتغنى بها الرحمن يوم القيامة، فيسمعها أهل الجنة كما ورد في الأثر.

أما «الدبر» فتعني - هنا - توجه الهزيمة، وهو توجه واحد يعرفه مشركو مكة حين هزموا في غزوة بدر، وهناك كلمة «الزبر» كما جاءت في قوله تعالى: ﴿جَاءَتْهُمْ رسُلُهمْ بِالبَيِنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالكِتَابِ المَنِيرِ﴾[2]، انظر التلاؤم بين السياق والنسق في آيات الله، وأنه من لدن عزيز حكيم.

أما الشاهد الذي أورده الفراء في قوله: «ضربنا منهم الرأس واليد تعبيرًا عن الجمع، فهو شاهد ليس من كتاب الله، إلا إذا كان هذا المعتزلي الخفي يقيس كلام البشر بكلام الله، ألم يعتبروا القرآن مخلوقًا؟ حتى في تعليله لـ«ضربنا منهم الرأس واليد»، غاب عن ذهن الفراء أن الجملة هنا قائمة على الإيجاز والحذف، الذي تتضمنه «من» التبعيضية، فكأن العربي يقول: ضربنا من كل واحد الرأس واليد، فرجع الرأس واليد المعزوان إلى الإفراد المتضمن.

(١) الرحمن آية ٣-٤.

(٢) فاطر آية ٢٥.

وأما الآية التي أوردها شاهدًا في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ﴾ فتعليلها أن كم الخبرية- هنا -تتضمن الجمع الذي اتصل بشفاعتهم، فجمع هنا يلائم جمعًا هناك، فانظر كيف أحكمت الآية؟ وانظر كيف سيكون النسق لو قلنا معاذ الله، وكم من ملائكة في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئًا، إنه اضطراب في السياق أولًا، وخلل في النسق ثانيًا، وإرباك للنغم الموسيقي المرتكز على عدد حروف الكلمات الواردة في الآية الكريمة.

أما تعليلات **الفراء** القائمة على قول العرب جائز أو غير جائز، فهي تعليلات مردودة عليه؛ لأن هذا كلام الله المعجز في لفظه والمعجز في دلالته والمعجز في موسيقاه الظاهرة والباطنة التي أشرنا إليها في تعقيباتنا السابقة.

وشأن **الفراء** هو شأن الزمخشري في كشافه والزركشي في برهانه فأوردوا أمثلةً منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا﴾[1]، وفي قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ﴾[2] وذهبوا مذهب الفراء من أن المراد بالإنسان الجمع، واستشهدوا بقول الحجاج إلى آخر هذه الشواهد التي تدور كلها في دائرة واحدة وهي الجواز

(١) الانشقاق آية ٦.

(٢) الانفطار آية ١٠٦.

في كلام العرب، وكأنهم يحطبون في حبل واحد، فالإنسان هنا هو من ناحية لغوية معنوية اسم جنس يستغرق الآدميين كلهم، ولا تعني الجمع اللغوي؛ لأننا لو وضعنا مكانها الناس أو الأناسي، لاختل البناء النسقي، واضطرب السياق، كما ذكرنا سابقًا، فالإنسان هنا جاءت بهذه الصيغة، وبهذه الحروف المحسوبة؛ لتنسجم مع السياق أولًا، ومع النسق اللفظي والإيقاع الموسيقي حرفًا بحرف، وصوتًا بصوت.

ويعجبني قول ابن عباس في تفسيره للإنسان، في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ﴾، من أن الإنسان يقصد به الوليد بن المغيرة[1]، فهنا خصوصية اللفظ، وقد تنسحب على جنس الإنسان بعامة.

ولكننا لا نقول ولا نجيز يا أيها الناس في هذا المقام؛ لأنه -هنا - خصوصية لفظ، كما أن في لفظة» ضيفي» خصوصية لفظ لا يناسب السياق إلا الإفراد - هنا - ولا مكان للجمع، مع عدم إغفال الدلالة المعنوية للكلمة التي تستغرق أكثر من واحد، دون مماحكات نحوية، أو تخيلات افتراضية تخل بالبنية اللفظية من ناحية، ويضطرب معها النسق وتفقد الانسيابية الجميلة بموسيقاها الخفية والظاهرة، وهو شيء يختص به كلام الله تعالى في محكم التنزيل.

(١) الجامع لأحكام القرآن الكريم ج١٩ ص٢٣٤.

رابعًا: استعمال الجمع موضع المفرد:

إن إدراك **الفراء** بأن اللغة لها منطقها الخاص[١] إذ إنه كان يعتمد على ذوقه وحسه المرهف إلى جانب اعتماده على الأثر[٢]، ولقد جاء حسه المرهف واضحًا في تذوق الموسيقا القرآنية في فواصل الآيات[٣]، ونحن سنبين في هذا المبحث كيف يخاطب القرآن الواحد بلفظ الجمع، لحكمة بلاغية تتعلق بالمعنى.

يقول البغدادي فيما يرويه عن ابن الأنباري في كتابه الزاهر: إن الفراء قال: «من العرب من يقول: «قميص أخلاق وجبة أخلاق، فيصف الواحد بالجمع؛ لأن الخلوقة في الثوب تتسع، فيسمى كل موضع منها خلقًا، ثم يجمع على هذا المعنى، ومن قال: جبة خلق، قالوا في التثنية: جبتان خلقان، وفي الجمع: جباب أخلاق»[٤].

وقد أورد الزركشي مستشهدًا لهذا ببعض الآيات القرآنية[٥]، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ

(١) أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة ص٢٩١.

(٢) أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة ص٢٩٠.

(٣) أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة ص٢٩٢.

(٤) خزانة الأدب ج١ ص٢٣٤.

(٥) البرهان ج٣ص٦.

عليمٌ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُم أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيهِمْ فَرِحُونَ فَذَرْهُم فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِين﴾[1]، فأنت ترى الخطاب موجهًا في الظاهر إلى جميع الرسل، في حين أن سياق الخطاب موجه إلى محمد – صلى الله عليه وسلم – وللقرآن الكريم –في استخدامه لهذا الأسلوب– حكمة بلاغية[2].

قال **الفراء** معلقًا على الرسل: «أراد النبي فجمع، كما يقال في الكلام للرجل الواحد: أيها القوم كفوا عنا أذاكم»[3].

وقال الزجاج: «وإنما خوطب بهذا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقيل: يا أيها الرسل، وتضمن هذا الخطاب أن الرسل جميعًا كذا أمروا»[4] وقال الزمخشري: «هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما، كيف والرسل إنما أرسلوا متفرقين في أزمنة مختلفة؟ وإنما المعنى: الإعلام بأن كل رسول في زمانه نودي لذلك، ووصي به؛ ليعتقد السامع أن

(١) المؤمنون من آية ٥٠_٥٤.

(٢) معاني القرآن ج٢ص٢٣٧.

(٣) معاني القرآن ج٢ص٢٣٧.

(٤) معاني القرآن وإعرابه ج٤ص١٥.

أمرًا نودي له جميع الرسل، ووصوا به حقيق أن يؤخذ به، ويعمل عليه...»[١].

وقال الزركشي: «قال أبو بكر الصيرفي: فهذا خطاب للنبي – صلى الله عليه وسلم – وحده؛ إذ لا نبي معه ولا بعده»[٢].

وهذا ما يؤكده ابن الجوزي فيما روي عن ابن عباس في تعقيبه على الآية السابقة: «يعني بالرسل –ها هنا –محمدًا – صلى الله عليه وسلم – وحده، وهذا مذهب العرب في مخاطبة الجمع[٣]، فأقامه مقام الرسل»[٤].

وفي إيراد صيغة الجمع لخطاب المفرد فيه تعظيم وإجلال للمخاطب، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٥]، فالمتكلم واحد، وهو الله الواحد الأحد، ولكنه عظم ذاته سبحانه وتعالى، فأورد الضمير بصيغة الجمع: نحن، نزلنا، حافظون، وفي كلام البشر حين يتولى المفرد أمرًا وينجزه، فيقول: إنا أنجزنا ذلك، وكذلك في البحوث

(١) الكشاف ج٣ص٢٥٤.

(٢) البرهان ج٣ص٧.

(٣) زاد المسير ج٥ص٣٤٦، مجمع البيان ج٧ص١٥٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ج١٢ ص١٣٥.

(٥) الحجر آية٩.

التربوية نقول: إننا نرى، ونرجح رأي كذا على كذا، فهذا وارد في اللغة على سبيل التواضع من المتكلم.

يقول الفراء: «يقال: إن الهاء التي في «له» يراد بها القرآن، وحافظون؛ أي: راعون، ويقال: إن الهاء لمحمد – صلى الله عليه وسلم – وإنا لمحمد لحافظون»(١).

والقرآن يؤثر استعمال مثل هذا لحكمة بلاغية، فقد امتاز العرب بالفصاحة، فجاء إعجاز القرآن لهم مقتضيًا لكلامهم(٢).

قال أبو عبيدة معمر بن المثني: «والعرب تفعل ذلك، فيقولون الرجل: فعلنا كذا وفعلنا، وإنما يعني نفسه»(٣)، كما جاء في القرآن: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(٤)، والله هو الخالق.

ومثل ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾»(٥)، فالخطاب من الله عز وجل للرسول – صلى الله عليه وسلم – قال **الفراء** في سبب نزول هذه الآية:

(١) معاني القرآن ج٢ص٨٥.

(٢) السياق وأثره في العدول عن مطابقة العدد عند الزمخشري ص١٥٨.

(٣) مجاز القرآن ج١ ص١٠٨.

(٤) القمر آية٤٩.

(٥) النحل آية ١٢٦.

«نزلت في حمزة لما مثل المشركون بحمزة يوم أحد فقال النبي – صلى الله عليه وسلم:- «لأمثلن بسبعين شيخًا من قريش»[١]، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾[٢]، ثم أمره بالصبر فقال: ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾[٣]، ثم أمره بالصبر عزمًا، فقال تعالى: ﴿وَاصْبرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ﴾[٤].

وبعد..، فإن هذه القضية تدور في الدائرة ذاتها، وهي دائرة التخمين والاجتهاد، وتقديم الافتراضات، دون إمعان للنظر وتمحيص حقيقي في كلام العرب، ولا سيما أن هؤلاء العلماء جلهم من الموالي، درسوا العربية وسمعوها، وفقهوا معناها إلا أن هناك أمرًا خفيًّا غاب عن الأفئدة، وهو روح العربية وأسرارها، تلك التي تجلت للعالمين بكتاب الله، فلفظة القرآن تأتي في مكانها المحكم كما أشرنا لا تحتمل الزيادة ولا النقصان ولا التأويل وما يعلم تأويله إلا الله، ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آَمَنَّا بِهِ﴾[٥].

(١) سنن الدار قطني، كتاب السير، جـ٥ ص ٢٠٤، حديث رقم ٤٢٠٤.

(٢) النحل آية ١٢٦.

(٣) النحل آية ١٢٦.

(٤) النحل آية ١٢٧.

(٥) آل عمران آية٧.

فمذهبهم في العدول باستعمال الجمع بدل المفرد في «قميص أخلاق»، هي عبارة صحيحة حذف منها محذوف، ولم يأت الجمع بدلًا من المفرد، فهو قميص من أخلاق، وهنا يستقيم المعنى بإرجاع المحذوف، ولكن البلاغة في الإيجاز والحذف لون من ألوان هذه البلاغة.

أما الرسل في الآية المذكورة ﴿يا أيها الرسل﴾ فليس فيها - كما نرى - استعمال جمع مكان مفرد، فالخطاب تشريعي، يشمل الرسل كافةً بتعاقبهم، فهنا تشريع ليس لواحد كما يزعمون، ثم إن الآية في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا﴾، تشريع- أيضًا-، ذلك أن الخطاب موجه لأمة المسلمين قاطبةً، وهذا هو قانون الجزاء فانظر وتأمل.

ومعلوم أن الخطاب حين يكون للرسول وحده، فإنه يتضمن الأمة في السياق نفسه، ونظير ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنْ طَلَّقْتمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾[1]، فقد قيل: إنه خطاب للنبي محمد _ صلى الله عليه وسلم _ والمراد أمته[2].

حيث إن الخطاب جاء للرسول – صلى الله عليه وسلم - بأن يبلغ الناس أو المؤمنين، بدليل قوله تعالى: ﴿طَلَّقْتمُ﴾، وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَاصبرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ﴾؛ حيث إن الخطاب جاء للرسول – صلى الله

(١) الطلاق آية١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج١٨ ص١٤٤.

عليه وسلم – وحده في موقف خاص من مواقف الدعوة في تصدي قريش له، ومن صبره – صلى الله عليه وسلم – يتعلم الناس جميعًا.

قال الفراء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾[1]، «أراد النبي، فجمع، كما يقال في الكلام للرجل الواحد: أيها القوم كفوا عن أذاكم»[2].

وقال القرطبي: «قال بعض العلماء: والخطاب في هذه الآية للنبي_ صلى الله عليه وسلم_، وأنه أقامه مقام الرسل... فيكون المعنى: وقلنا يا أيها الرسل كلوا من الطيبات، كما تقول لتاجر: يا تجار ينبغي أن تجتنبوا الربا، فأنت تخاطبه بالمعنى»[3].

وهذا ما يؤكده ابن الجوزي، فيما روى عن ابن عباس في تعقيبه على الآية السابقة[4]: «يعني بالرسل ها هنا محمدًا _صلى الله عليه وسلم-

(١) المؤمنون آية ٥١.

(٢) معاني القرآن للفراء ج ٢ ص ٢٣٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ج ١٢ ص ١٣٥، المحرر الوجيز ج ٤ ص ١٤٦.

(٤) انظر بحثنا السياق وأثره في العدول عن مطابقة العدد عند الزمخشري دراسة تحليلية ص١٥٨.

وحده، وهذا مذهب العرب في مخاطبة الواحد مخاطبة الجمع»[1]، فأقامه مقام الرسل[2].

هذه الآية الكريمة تلغي الرهبنة المسيحية، والتزمت العقائدي في بقية الأديان وقد خوطب بها عيسى عليه السلام في بعض الروايات، وهي تخرج من خصوصية الموقف إلى عمومية التشريع، والخطاب يشمل جميع الرسل، وفي إيراد صيغة الجمع لخطاب المفرد فيه تعظيم وإجلال للمخاطب.

وأما قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُم﴾[3]، فإنه يعجبني قول الإمام الطبرسي في ذلك، بأن التعبير جاء بلفظ الواحد عن الجميع؛ حيث جاء من قبيل سياق المعنى المتضمن في الآية، من أن نعيم بن مسعود جاء من جهة الناس ويتحدث بلسانهم، فهو يخبر عن الناس، وهم أبو سفيان وقومه[4].

(١) زاد المسير ج ٥ ص ٣٤٦، مجمع البيان ج ٧ ص ١٥٤.

(٢)) الجامع لأحكام القرآن ج ١٢ ص ١٣٥.

(٣) آل عمران آية ١٧٣.

(٤) انظر بحثنا السياق وأثره في العدول عن مطابقة العدد عند الزمخشري دراسة تحليلية ص١٥٧-١٥٩.

وأما تعليله الآخر من أن ذلك من قبيل فصاحة العرب، وأنهم يعبرون بضمير الجماعة بدل ضمير المتكلم: حيث يقول الرجل فعلنا كذا وفعلنا... فهذا مناقض لكلام الإمام الزركشي الذي يرى أنه لا ينبغي أن يستعمل ضمير الجمع في واحد من المخلوقين على حكم الاستلزام؛ لأن ذلك كبر، وهو مختص بالله سبحانه وتعالى[1].

ونحن نرى أن استعمال ذلك يكون من جهة التواضع وإشراك الجماعة في هذا الفعل، فهنا تتجلى روح الجماعة، كما يقول علماء الاجتماع.

وتبقى – هنا– حلقة مفقودة في تلك الاجتهادات التعليلية، كما ذكرنا مرارًا في السياق ذاته، وهو أن ما ينطبق على كلام البشر لا ينطبق على محكم التنزيل، فكلام الله محكم ومنظم تنظيم حبات الجمان في عقود الحسان، لا زيادة ولا نقصان، وهو إحكام وهندسة لفظية تنسجم مع انسيابية الآيات وعدد حروفها، ونوعية هذه الحروف بما يتفق مع الفواصل في نهاية الآيات؛ ليتشكل الإيقاع الموسيقي الظاهر والخفي؛ ليتشكل في النهاية رونقًه وروعته من حيث الإعجاز اللغوي، والبلاغي، والموسيقي في سيمفونية تعبيرية عجز عن إدراك أسرارها كل العلماء حتى تقوم الساعة،

(١) البرهان ج٢ ص٢٣٦.

فهو كنز – أعنى القرآن – لا تنفد ذخائره، قال تعالى: ﴿ن وَالقَلَم وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[1]، انظر وتدبر كيف جاءت روعة النسق اللفظي المصحوبة بموسيقا غنائية، تهز أعماق الوجدان، وكذلك في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[2]، انظر وتدبر، لتقف مذهولًا أمام روعة البيان وسحر الكلام، فتبارك الله أحسن الخالقين.

(١) القلم آية ١.

(٢) الرحمن آية ١٣.

نتائج البحث:

بعد هذا الاستعراض لموقف الفراء من بعض آيات الذكر الحكيم التي أوردها في كتابه معاني القرآن، يمكننا أن نخلص إلى ما يأتي:

١- استطاع أبو زكريا **الفراء** أن يوجه كلام العرب، ويعلل له، ويتفلسف على لسانهم من خلال الشواهد التي سمعها من أفواههم وأوردها في تضاعيف تصنيفه، فهو يفصل ويمثل ويعلل ويقيس، وكل ذلك من ألوان الفلسفة والمنطق، ثم هو إلى جانب ذلك يسند هذه التعليلات إلى البدو الذين سمع منهم.

٢- سلك **الفراء** سبيل المتكلمين في إرجاع الظواهر اللغوية إلى عللها وأسبابها، فهو معتزلي صاحب المعتزلة في شخص قطب من أقطابهم، هو ثمامة بن الأشرس، ومن حوله من أهل الاعتزال، وهم ينتهجون منهج المناطقة كما هو معروف، كما أنه عاصر المأمون باعتزاله، بل بتعصبه لمذهب المعتزلة.

٣- استطاع الفراء أن يطبق هذه الافتراضات الفلسفية على موقفه من مسألة العدول التي وقفنا عندها طويلًا، فهو يفترض أن استعمال المفرد في الآية يدل على الجماعة، أو أن استعمال ضمير الجمع يدل على المفرد أو المثنى مثلما رأينا، وهي افتراضات بناها على أساس فلسفي معتزلي، وكأنه هنا يتعامل مع كلام البشر، لا كلام الله المحكم المتين الموزون لا

زيادة ولا نقصان فيه، وهنا نلمح أن روح الاعتزال واضحة فيه، ذلك أنهم يعدون القرآن مخلوقًا وليس من كلام الله القديم.

٤- غاب عن ذهن **الفراء** وذهن هؤلاء المولدين روح العربية، وسرها الكامن في ألفاظ التنزيل، وكيف أنها اتسقت وفق سياق معجز ونسق مذهل، تجتمع فيه إعجاز اللفظة، وجودة سبك العبارة، وهندسة البناء التعبيري، يسري في ذلك كله نغم موسيقي بإيقاع مذهل، وإنه صنع الله القدير، الذي لا تسمو إليه أية لغة من اللغات، إنه سيمفونية معجزة تهز الوجدان من أعماقه، إن هذا الأمر لم يدركه **الفراء** وهؤلاء، ممن انصب جهدهم على الاجتهادات والاحتمالات والفروض المنطقية، والله ورسوله أعلم.

ثبت المصادر والمراجع:

١- **إعراب القرآن**: أبو جعفر أحمد بن إسماعيل النحاس(ت٣٣٨هـ)، تحقيق د. زهير غازي زاهد، عالم الكتب، ط٢،١٩٨٥م.

٢- **أمالي الشجرية**: أبو السعادات هبة الله بن علي المعروف بـ«ابن الشجري» (ت٥٤٢هـ)، تحقيق ودراسة د. محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١،١٩٩٢م.

٣- **أنباه الرواة على أبناء النحاة**: أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، (ت ٦٦٤هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٩٦٨م.

٤- **البرهان في علوم القرآن**: بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٧٢م.

٥- **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي(ت ٩١١هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، مصر، دون ت.

٦- **تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب**: أبو الحجاج يوسف بن عيسى المعروف بـ«الأعلم الشنتمري» (ت

٤٧٦هـ)، تحقيق وتعليق د. زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢،١٩٩٤م.

٧- **تفسير البحر المحيط**: أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت ٧٥٤هـ)، دراسة وتحقيق الشيخ عادل عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١،١٩٩٣م.

٨- **تهذيب اللغة**: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت٣٧٠هـ)، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م.

٩- **جامع البيان**: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: (ت ٣١٠هـ)، تقديم الشيخ خليل الميسي، ضبط وتوثيق وتخريج صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

١٠-**الجامع لأحكام القرآن**: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١هـ)، راجعه وضبطه وعلق عليه د. محمد إبراهيم الحفناوي ود. محمود حامد عثمان، دار الحديث، القاهرة، ط٢، ١٩٩٦م.

١١-**خزانة الأدب ولباب لسان العرب**: عبد القادر بن عمر البغدادي (ت١٠٩٣هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الهيئة المصرية للكتاب، ط١، ١٩٧٩م.

١٢- **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**: أحمد بن يوسف المعروف بـ«السمين الحلبي»، (ت٧٥٦هـ)، تحقيق د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٨٦م.

١٣- **ديوان أبي تمام حبيب بن أوس الطائي (ت٢٣١هـ)**: شرح الخطيب التبريزي (ت٥٠٢هـ)، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف، القاهرة، ط ٣، ١٩٧٦ م.

١٤- **ديوان امرئ القيس (ت٨٠ ق.هـ)**: تحقيق وتبويب وشرح وضبط حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٨٩م.

١٥- **زاد المسير في علم التفسير**: أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، تخريج أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.

١٦- **أبو زكريا الفراء (ت٢٠٧هـ) ومذهبه في النحو واللغة**: د. أحمد مكي الأنصاري، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة،١٩٦٠ م.

١٧- **سنن الدار قطني**: أبو الحسن علي بن عمر الدار قطني (ت ٣٨٥ ه)، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠٠٤ م.

١٨- **شرح ديوان علقمة بن عبده الفحل**: للأعلم الشنتمري (ت٤٧٦هـ)، تقديم وفهرسة د. حنا نصر الجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

١٩- **شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات**: أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري (ت ٣٢٨هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣م.

٢٠- **شرح المفصل**: موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش (ت ٦٤٣هـ)، عالم الكتب، بيروت، دون ت.

٢١- **شرح المفصل في صنعة الإعراب الموسوم بـ«التخمير»**: صدر الأفاضل القاسم بن الحسين الخوارزمي (ت٦١٧هـ)، تحقيق د. عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ٢٠٠٠م.

٢٢- **طبقات النحويين واللغويين**: أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي (ت ٣٧٩هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب، القاهرة، ط٣، ١٩٥٤م.

٢٣- **غاية النهاية في طبقات الفراء**: محمد بن محمد بن الجزري (ت٨٣٣هـ)، بعناية ج ـ برجستراسر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٩٨م.

٢٤- **الفاصلة القرآنية**: د. عبد الفتاح لاشين، دار المريخ، الرياض، ١٩٨٢م.

٢٥- **فتح القدير**: محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون ت.

٢٦- **الفهرست**: ابن النديم (ت٤٣٨هـ)، دار المعارف، تونس، بدون ط ت.

٢٧- **الكتاب**: أبو بشر عمر بن عثمان بن قنبر الشهير بـ«سيبويه (ت ١٨٠هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١٩٨٨،٣م.

٢٨- **الكشاف «عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل»**: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، شرح وضبط ومراجعة يوسف الحمادي، مكتبة مصر، دون ت.

٢٩- **لسان العرب**: جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي (ت ٧١١هـ)، دار الفكر، بيروت، ط١٩٩٠،١م.

٣٠- **مجاز القرآن**: أبو عبيدة معمر بن المثنى(ت٢١٠هـ)، د. محمد فؤاد سزكين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٩٨١،٢م.

٣١-**مجمع البيان «في تفسير القرآن»**: أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي (ت٥٠٢هـ)، وضع الحواشي وخرج الآيات إبراهيم شمي الدين دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

٣٢-**المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**: عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت٥٤٢هـ)، تحقيق ودراسة محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

٣٣-**المزهر «في علوم اللغة وأنواعها»**: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرون، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، بدون ت.

٣٤-**معاني القرآن**: أبو زكريا يحيي بن زياد الفراء (ت٢٠٧هـ)، تحقيق أحمد يوسف تجاني، ومحمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠م.

٣٥-**معاني القرآن وإعرابه**: أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج (ت٣١١هـ)، تحقيق ودراسة د. عيد مصطفي دروشي، ود. عوض بن حمد القوزي، دار المعارف، مصر، ط١٩٩٣،١م.

٣٦-**نزهة الألباء في طبقات الأدباء**: أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد الأنباري (ت٥٧٧هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر القاهرة، ١٩٦٧م.

٣٧- **النهر الماد من البحر المحيط**: أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت٧٤٥هـ)، تحقيق د. عمر الأسعد، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

المجلات العلمية:

١. **السياق وأثره في العدول عند الزمخشري**: د. محمد مصطفى عبد العال القطاوي، بحث منشور في مجلة جامعة أم القري لعلوم اللغات وآدابها، العدد ٤، ٢٠١٠م.